

بنية المواجهة والإخفاق

في «بنسافات نعش» (*)

صدوق نور الدين

يقود الاستبدال إلى ثلاث ملاحظات هي التالية:

١ - لا يتم إقصاء الشخصية بمجرد الحديث عنها، ضمن فصل يحمل رقماً ما، وإنما تتم العودة إليها في سياق المحكي وتنامي المسافات السردية.

٢ - كل شخصية تشكل وحدة سردية صغرى، إذ بإمكاننا لدى متابعة تطورات شخصية «عزيز اللباد» الاهتداء إلى رسم صورة دقيقة عنه؛ وهو الحال مع بقية الشخصيات، والمتاح منذ الأشربة إلى الآن.

٣ - إن مجموع هذه الوحدات الصغرى هو ما يشكل الوحدة الكبرى، أي نصّ بنات نعش.

وقد يلاحظ القارئ صعوبة تحميل بعض الفصول أسماء محددة، مثل ٢٣ و ٢٤، لعامل تداخل العلاقات وتشابكها، لولا أنّ بإمكاننا اعتبار رقم ٢٣ متابعة لأحوال «هولو التكلي»، و ٢٤ لـ «سليم أفندي»، مع رصد

يعود في أساسه إلى الاحتفاء بالشخصيات، وإلى تبيان المصائر التي انتهت إليها، وهي مصائر تتناقض فيها المبادئ وتختلف التوجهات. فمن الطموحات الوطنية الصادقة إلى النوايا التي تخفي المكر والخيانة والوشاية

١ - ٢: تتألف هذه الرواية من ثلاثين فصلاً، وكل فصل يحمل رقماً لا اسماً معيناً، وذلك على غرار ما طالعنا به الأشربة. إلا أن بالإمكان إحلال أسماء للفصول بدل الترقيم المعتمد. فهذه الأسماء سيتم استحواؤها انطلاقاً من محتوى كل فصل. وأقول بأن خلف هذه الفصول تقف الشخصيات الروائية الخيالية التي خبرنا حياتها في الأشربة، فبقراءة بنات نعش كجزءٍ ثانٍ نستكمل تلك المعرفة التي لن تكون وافية إلا بموت الشخصية، والإتيان على قراءة الرباعية بأكملها. فإذا أخذنا مثلاً الترقيم المعتمد من ١ إلى ١٠، أمكن استبداله بأسماء شخصيات لها مواقعها ضمن الرواية:

١ - وصف الرواية:

١ - ١: يورد المهتمون بشعرية الرواية ثلاثة مكونات تحدد النظر إلى النصّ الروائي: المستوى السردى، والوصفي، والمبدأ الحوارى^(١). هذه المكونات لا يخلو منها في نظري أي نصّ روائي (ولربما أي نص يمتاز بصبغته الحكائيّة). إلا أنني أرى في هذا السياق نفسه أن بعض الروايات، بالرغم من توفرها على هذه المكونات كقاعدة أساسية، قد يغلب فيها الاهتمام بمكوّن ما على حساب بقية المكونات، إذ من النادر حصول تمييز فائق بالنسبة لكافة المستويات. ففي رواية الغبي لـ «فتحى غانم» يهمني المستوى السردى بشكل لافت، وفي وليمة لأعشاب البحر وقالت ضحى، يلفت النظر المكون الوصفي. وأما في الرواية التي نحن بصدددها، وأقصد بنات نعش، فينتقلص المكون الوصفي نظراً لهيمنة السردى والمبدأ الحوارى، عكس ما تحقّق في الأشربة حيث تكامل مجموع هذه المكونات.

إنّ إيلاء الأهمية للسردى في بنات نعش

(*) بنات نعش هي الجزء الثاني من رواية مدارات الشرق لنيل سليمان، صدرت عام ١٩٩٠ عن دار الحوار - سورية. وعن الناشر نفسه صدر الجزء الأول عام ١٩٩٠ أيضاً بعنوان الأشربة، ثم صدر الجزء الثالث (التيجان) والرابع (الشقائق) عام ١٩٩٣

(١) مجلّة فصول، العدد الخاص بـ «زمن الرواية»، الجزء الأوّل، بحث الناقد «محمد برادة» الموسوم بـ «الرواية أفقاً للشكل والخطاب المتعدّدين»، المجلّد ١١، العدد ٤، شتاء ١٩٩٣، ص ١٨.

٥	٤	٣	٢	١
راغب الناصح	عمر التكلي	فياض العقدة	هولو التكلي	عزيز اللباد
١٠	٩	٨	٧	٦
عزيز اللباد	راغب الناصح	ياسين الحلو	الست زهرة	هشام الساجي

علاقته . . أما في ٢٥ فتتحقق معانية الوضعية التي آل إليها «عمر التكلي» .

٢ - في دلالة العنوان

يبدو العنوان - إلى حدّ ما - غير شعري شاعري . والعناوين أصلاً تتباين : بين الروح الشعرية، والتقرير، والمباشرة . إلا أنه يوحى منذ البدء بالشخصيات (الشخصيات النسائية) . وإذا كان الجزء الأول الأشعرية بمثابة أفق مفتوح على الحياة بعد مواجهة المحتل التركي، فإن الجزء الثاني بنات نعش، يباين الأول ويفارقه بحمله لدلالة الموت . فالحياة والموت إذن ثنائية تختزل صراع الوجود وتأكيد الذات وتأسيس الهوية . وليس غريباً أن يُفتح الجزء الثاني في فصله رقم (١) بطلقة الرصاص والتهيه، وهو ما يبين حدّة الصراع، واحتمالية التهجير .

والموت في بنات نعش يظلّ قابلاً لأكثر من معنى ومن تأويل . فقد يكون طبيعياً، حين يطولُ إنساناً تقدّم في السن، أو يُصاب بمرض ما، أو يتعرّض لحادث وهو بعدُ في عز شبابه . . وقد ينتج عن مواجهة مع الآخر المحتل، وهو في النص «فرنسا»، باعتبار أن الاطار التاريخي للجزء الثاني يتحدّد فيما بين ١٩٢٠ و ١٩٢٧؛ لكأنّ البلاد تخرج من استعمار تركي، لتدخل آخر هو الفرنسي، ومستقبلاً الانجليزي مع الفرنسي، وفق ما سنُعاينه في الجزئين الأخيرين : الشقائق والتيجان . على أن بالإمكان ورود الموت في صيغته المجازية، حيث يغدو إحباطاً وشعوراً بالهزيمة، وعدم قدرة على مواجهة الأقوى كحقيقة، أو عن طريق التواطؤ والخيانة .

من هنا اعتبر العنوان حصيلة لبعدين أساسيين :

● الأساس الواقعي : مادامت المواجهة مع المحتلّ قد كلّفت الشام بقراها ومدنها الأرواح البشرية الكثيرة، وهو ما تجسد أيضاً في المغرب والجزائر ومصر على حد ما قال «هشام الساجي» في الفصل رقم (٣٠) من الرواية .

● الأساس الأسطوري : ويعيدنا إلى الموت/ النهاية التي آل إليها صراعُ قبايل وهابيل في الجزء الأول الأشعرية . إنه الصراع الذي ترك هنالك وهنا الدمع والبكاء على الوجه الغائب/ الوجوه الغائبة .

وإذا كانت بنات نعش إحالة على الموت، فإنه موتُ النهضة العربية، واليقظة العربية، حتى لا نقول موت الشام وحدها، مادامت هذه الأخيرة مرآة تعكس واقع الاحتلالات المباشرة وغير المباشرة، كما تعكس الكراهيات والخianات، وبالتالي الانتفاضات الوطنية الشعبية الصادقة والرافضة للمحتل، ولأذئاب التواطؤ من الانتهازيين والوصوليين . ومن خلال السابق يحقّ لي إعادة كتابة العنوان كالتالي :

أ - «يا بنات نعش» : وهونداء منصوب . . وكل نداء يخفي طلب الإقبال، والطلب هنا يتعلق بندي (وبكاء) الغائبين بالموت أو بالمنفى أو بالتهجير قسراً .

ب - «وقائع بنات نعش» أو «هذه وقائع بنات نعش» : وهو عنوان يدعو القارئ لتفكيكه عن طريق قراءة الرواية وفهمها وتفسيرها، وتأويل ما يستحق التأويل من معانيها، معاني صراع الشام مع المحتل بحثاً عن الاستقلال .

أخلص إلى القول بأنه إذا كان العنوان يوحى بالموت، فإن الفصل رقم ١ - وكما ذكرت - عبّر عن قتل «عزيز اللباد» لـ «عبود بك الرشدة» . وأما الفصل الأخير رقم ٣٠، فكشف عن إطلاق رصاصة من طرف «نافع الصوان» أصابت عين «الأمير دشاش»، وهو ما يُحيل على مواجهة مستمرة، وعن انغلاق للنص لا يكاد يحيل على أفق .

٣ - تقنية العرض

المعنا فيما سقناه سالفاً إلى أنّ الروائي ركّز في بنات نعش على الشخصيات . وهذا التركيز اقتضى منه اعتماداً تقنية العرض الشامل لأحوالها وظروفها، وخاصة الشخصيات الأساسية التي جمعتها «قشلة

الحميدية» كمكان مارست فيه واجب الدفاع الوطني ضد المحتل (الأترك)، و«الرقّة» كمنفى هجرهاً إليه المستعمر بعد مواجهاتها الظافرة لفرنسا . . وقد غاب عنها :

« اسماعيل معلا، وفاض العقدة، واحد مع الفرنسيين، وواحد ضدهم، كما باتوا جميعاً يعلمون . » (ص ٥٥٦) .

ليحل محل الغائبين «حسين فندي» و«بديع الطارة»، وكأني بهما يعودان لممارسة فاعلية الحضور بدلاً عن الغائبين . . (*) .

ومادما بصدد الجزء الثاني من هذه الرباعية فإنني اعتبر العرض بمثابة عرض استكمال لمختلف الإضاءات التي انتهت إلى القارئ سابقاً . ذلك أنّ هذا الاستكمال يتعلّق بالمصائر التي عرفتها الشخصيات : عائلياً، ومهنياً، وفي جانب العلاقات الانسانية، وسياسياً . . ويصطبغ الاستكمال بطابع التناوب على مستوى الحضور؛ فبعض هذه الشخصيات يظل أكثر فاعلية في مقابل التذني الذي تعرفه أخرى .

ويرجع هذا إلى قوة الشخصية وسلطتها داخل النص الروائي، وإلى خصوصية الفضاء المؤثر في/ وعلى هذه الشخصية . فمثلاً نجد : «عزيز اللباد» و«راغب الناصح» و«ياسين الحلو» و«فاض العقدة» و«اسماعيل معلا» أكثر حضوراً وفاعلية ضمن العالم الروائي لـ بنات نعش إذا ما قورن الحضور بالحديث عن «الست زهرة» و«هشام الساجي» . لذلك فمركز الثقل الحدثي يقع على الشخصيات الخمس بما لها من قرابات وطموحات تشدّ دعمها والتأسيس لها .

ومن ثم نلغي العرض يركز على فضاء القرية بشكل واسع، في مقابل

(*) تمّت الإشارة ضمن الرواية إلى لقاء سابق لهذا تحقّق في بيت أبي عاطف : «أمام بيت أبي عاطف التقوا، كأنهم على عشب القشلة الحميدية منذ سنوات، ينتظرون الإجازة . . .» (ص ٣٧١) .

المدينة . . (*) . . فالقرية هي الفضاء الذي وجدت فيه هذه الشخصيات وغيرها ذواتها، وذلك بالبحث عن العمل سواء لدى «الأغوات» أو «الأمراء» أو مَلَاك الأراضي . وبالرغم من الشروط المحجفة التي فُرضت على كل فلاح فإن التشبث بالأرض ظل قائماً، حتى ولو أدى الأمر إلى التهجير من أرض إلى أخرى، على نحو ما وقع لـ «عزيز اللباد» و«ياسين الحلو» و«راغب الناصح» وغيرهم . . . علماً بأن بعض الشخصيات دَعَمَت صَفَّ المحتل الوافد أو المقيم داخل البلد، بينما حارَبَتْ أخرى إلى جانب الثوار . وليس بالغريب أن تجابه شخصيات الأُمس مَنْ شاركها الدفاع ضد المحتل التركي (مثلاً: صراع ياسين الحلو مع راغب الناصح، وعزيز اللباد مع فياض العقدة) . .

وكما يمَسُّ العرض فضاء العمل والاستقرار، فإن ذكر الأرض يرتبط بالمرأة . فكل شخصية من هذه الشخصيات جسدت التوق إلى إنشاء أسرة؛ وهو ما حدث عن قناعة واختيار، أو بالفرض والإجبار والإكراه: (اختطاف امرأة/ مراودة أخرى/ فرض الخيانة على ثالثة) .

لذلك فإن الارتباط يماثل الحنين إلى الأم، وصورة هذه الأخيرة في الرواية أبانتها المرأة، فكما تحبل هذه وتنجب، فإن الأرض تمنح بذورها وانتاجاتها . .

على أن كل جَبَل من لدن امرأة بمثابة مؤشر على ثورة في مكان ما من هذا الريف الواسع، وهذا يوضح سياسياً عدم الرضى بالسائد والكائن، الأمر الذي يحتم المجابهة والنضال، علماً بأن إجابات معينة جاءت مية، وهو ما يحيل على الهزائم التي مُنِي بها الثوار، سواء من لدن المحتل، أو من الوصوليين الذين يبنون أحلامهم على الخيانة .

لقد كانت العلاقات الانسانية بين هذه الشخصيات، وغيرها، مؤسسة على تواصل إيجابي وسلبي:

إيجابي: في حالة الرسو على الموقف النضالي الوطني الشعبي ضد كل أساليب الاحتلال، وأقصد الموقف الموحد بحثاً عن استقلال سورية .

سلبي: حين يقع اختلالاً في الموقف:

- ١ - بالخيانة،
- ٢ - بالاستغلال،
- ٣ - بفرض التهجير والنفي،

وأنتهي مما جئت على ذكره إلى اعتبار تقنية العرض شاملة، مادامت تستهدف بناء الشخصية البناء الشامل المتكامل، انطلاقاً من وحدات حكائية صغرى، نحو وحدة كبرى هي رواية «بنات نعش» . .

الإطار الذي يختزل رواية «بنات نعش» كجزء ثانٍ من رباعية «مدارات الشرق»، خاصة وأن مدار هذه البنية هو واقع الاحتلال ومناهضته بحثاً عن الاستقلال، إذا ما ألمعنا لكون الاحتلال لا يتجسد انطلاقاً من العناصر الدخيلة وحدها، بل نجده يمتد ليشمل الكائنات المنتمية إلى الأصل، والحاملة لنوايا الخيانة والانتهازية والوصولية .

وحين تتحقق الإحاطة بهذه البنية في شموليتها، يمكن تفرغها إلى بنات صغرى ضدّية هي التالية:

- ١ - القرية # المدينة . .
 - ٢ - الشرق # الغرب . .
 - ٣ - الدفاع # التواطؤ والخيانة . .
 - ٤ - الحب # الكراهية . .
- وللتوّ نلاحظ بأن هذه البنات الصغرى يترتب فيها الثاني عن الأول:

- ١ - القرية # المدينة . .
- ٢ - الشرق # الغرب . .

وفي الوقت ذاته الرابع عن الثالث:

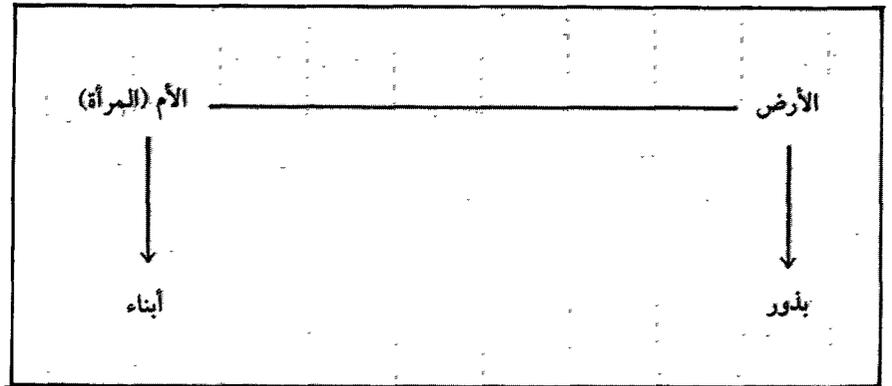
- ٣ - الدفاع # التواطؤ والخيانة . .
- ٤ - الحب # الكراهية . .

لتصبح البنية الصغرى الثانية والرابعة، وكأنها متناصلة من سابقتها، أو لكأنها توسع من ألقها نحو المزيد من الإضاءة .

٤ - ١ : القرية # المدينة :

القرية :

القرية في «بنات نعش» صورة عن الأصل . ذلك أن ما يفصح عنه هذا الأخير هو العلاقة الرابطة فيما بين الإنسان (الفلاح) والأرض، وهي علاقة يطبعها اختلال مادامت تتسم بالتغيّر وعدم الثبات . فالفلاح يتوق إلى الاستفادة من الأرض بحثاً عن مستوى من العيش الكريم لا يهفو إلى تجاوزه . . إلا أن هذه الاستفادة، وحسب «بنات نعش»، يطبعها الاستغلال، باعتبار أن الرؤية إلى القروي (فلاح، راع، أو خادم) رؤية تأسر هذا الإنسان في وضعية العبد الخادم . . وأما مالك الأرض وفق شرعية قانونية أو بدونها



٤ - بنية المواجهة والإخفاق :

يمكن اعتبار بنية المواجهة والإخفاق،

(*) - ستعاين فضاء المدينة ضمن بنية التضاد: قرية # مدينة .

فهو السيد المالك، والمتحكّم في منتوجات هذه الأرض، وفي ثروتها الحيوانية، ومن ثم، فإنّ ما ينتجُه العبد لن يستفيد منه إلاّ النزر اليسير، في مقابل تحصيلات السيد الواسعة، ومن قطاع شاسع من القرويين.

« . . وفي خدمة الأمير ما لا يحصى من الفلاحين كما من البدو، من العرب كما من الأكراد، من التركمان كما من الأرمن، من المسلمين كما من المسيحيين، حتى الزيديون منهم من يخدم الأمير، ومن الفرنسيين معه ضابط يرافقه مثل ظله، وطبيب يعنى بصحته، وليس في القوم من لا يشرفه أن يخدم الأمير . . . » (ص ١٤١)

« قلت لك: يست يده حتى يقبل ذبيحة واحدة هذه السنة مادام الموسم يا حسرة . . . غضب وحلف بالله أن يزيد الذبائح ذبيحة مادام لساني يطول . غضب الله عليّ وبربرت . حلف بالله: ذبيحة جديدة، وزاد: كلّ ما فتحت فمك زدت ذبيحة . غضب الله عليّ وقلت: هذا ظلم، والظلم لا يرضاه الله ولا عبده . وقف وقال: لا ترجع إلى النصبة . . . وخلّ غيري يشغلك ويؤويك . . . » (ص ١٩٢)

إنّ القرية في ضوء هذا تجلّو عن النظام الإقطاعي الذي تتحكّم فيه الآليات السلطوية بشكل أو آخر، مادام الرّفص يُجابُه بنزع الأرض أو النفي أو التهجير . . . لاسيّما وأنّ الإقطاعي يرى أنّ اليد العاملة في وفتها تسمح له بسنّ القوانين التي تلائم وضعيته وتخدم مصالحه الذاتية . . .

« . . الطير في السماء هنا ملك للشيخ . . . » (ص ١٣١).

« كلّ ابن آدم منا عليه لشيخ من الشيخ ذبيحة أو عشر . . . ماذا أحكي لك؟ . . . » (ص ٩١).

« أنا راحل يا هند. لقمنا ليست هنا. لن أعود حتى يوقتي الله بمكان تقدر أن تعيش فيه. ماذا أوصيك؟ الولد يا هند . . . لسناك، أنا أعرفه. إيّاك أن تذكرني صادقاً أمّا أو عبده

بكلمة. ادعي لي حتى لا تطول غيبي .
وغادرها دون وداع « (ص ١٢٨).

تبدو صورة السيد المالك والإقطاعي واحدة، من «الأشربة» إلى «بنات نعش» . . . فهو: الآغا، الفرنسي، الأمير أو الشيخ . . . وبالتالي الوكلاء الذين يتدبون من لدن هؤلاء، من أبناء البلد، وهذا ما يفصح عن كون محتّل، دخيلاً كان أو من أبناء البلد، يحمل ذات المميّزات والصفات التسلّطية المتمثلة في الكسب اللامشروع، وفي مضاعفة الثروة بالقهر والتعذيب وقمع الاحتجاجات والنظاهرات. لذلك يجد القروي ذاته أمام نظام من التعفن يصعب إبداله وتغييره، نظام درج على منواله حكّام لا يحسنون إلى اليوم سوى فنّ الاستبداد:

« . . ضجّ الرعاة بظلم فيّاض، واكتفى الشيخ غشوان أوّل مرّة بأن يأمر فيّاض بالتعقل، أمّا في المرّة الثانية فقد شتمه، هدّه بالضرب والطرده . . . » (ص ٢٤).

«فتح أذنك جيّداً: البيادر صرت تعرفها. أراك من الشروق للغروب تدور فيها وأنت تهزّ بيديك. الآن البيادر عامرة، وناكر الجميل ما جزاؤه؟ يوم الشدة يزحف على يديه ورجليه: آغا يا آغا، ويوم الفرج يلعب بذيله. هـ: احك حتى أسمعك . . . » (ص ١٢٥).

فالقريّة حسب الرواية هي:

- ١ - نموذج لنظام إقطاعي متسلّط.
- ٢ - تجسيد لاستبداد شبه موروث.
- ٣ - كشف لمحنة القرية مهد الثورات الشعبية ضدّ كلّ أصناف الاحتلال.

المدينة

إذا كانت القرية موقعاً فلاحياً خالصاً يرسم ارتباط الكائن بالأرض في قوّة لا حدود لها، فإنّ المدينة تضادّ هذا الموقع من منطلق كونها تجسّد تحوُّلاً عميقاً في مستويين:

مستوى الوعي، ومستوى العمل. فوعي ساكن المدينة يتميّز بالرغبة في التوسّع الذاتي والتجاريّ. من حيث الذات، نلّفني هذا التوق إلى الاستقرار في البيت، وإنّ أمكن التوسّع فيه وامتلاكه - لكأنّ الإنسان يؤسّس لفرض سلطة قاهرة على المكان، بعيداً عن أن يشركه فيه غيره، في الوقت الذي تخضع فيه الأرض الفلاحية، وبالرغم من ثبوتية ملكيتها إلى هذه الشراكة الاجتماعية التي تؤهلّ الكلّ للاستفادة منها. فالمدينة هي التفكير في الاستقرار، وفي فرض السلطة على المكان، لذلك فإنه كلما انتهى إليها الإنسان، شرع في البحث عن مأوى، قبل أن يداهمه الليل ويحتمي بالفراغ والتشرّد:

« . . تقلّب يفكّر في أنّ عليه أن يبحث عن مسكن آخر أرحب وأنظف أيضاً، فإنّ لم يتوفّر له استئجار غرفة أو غرفتين كذلك، فسوف يكون عليه أن يشترى بيتاً بكامله . . . » (ص ٣٥).

إنّ الحلول بالمدينة والاستقرار فيها، بمثابة دعوة للتعامل مع أشياءها، أكاد أقول مع هذه «المفردات» المحيلة عليها، وهي في تكون الغالب مدعاة للدهشة والتساؤل وردّ الفعل، علماً بأنّ هذه «المفردات» تظلّ وافدة من خارج، وتدعو للتأقلم معها، وبالتالي إلى لباسها المحلي والخاص. لذلك لا يتألف القرويّ مع هذه «المفردات» بالسرعة ذاتها، حتى إنّ النطق بها يعسر في بعض الأحيان، وهو ما يجعل القروي يزواج بين لغة بدوية تجلّو عن وعيه، وأخرى مدنيّة تكاد تكون راقية.

إنّها أشياء العمل، واللباس والبيت، وجميعها تجعل من المدينة مكان الريح والكسب، بعيداً عن النيّات المغرضة (*).

« . . كان عزيز يصغي بانتباه شديد، يحدّق في القبعة الناشزة وسط الطاولة، يتابع اختلاج جفني الأستاذ فخري، شفثه الرقيقتين، حركات

(*) لنا عودة إلى الأشياء ودلالاتها في مبحث مستقلّ.

أصابه المتشابكة في حضنه . . ذقته
الملساء، أزرار سترته اللأمة، وفي
غفلة منه دخل وليف . . «
(ص ٢٨٠).

« . . فيم إلى المدينة، حيث العيش
مهما عسر يظل أهون من أرض
الشيوخ أو حسي الخواجة فياض
والأمير ياسين . . وكانت فاطمة
تصغي بشوق يخالطه البله، ثم خالطه
الإنكار . . « (ص ٣٧٥).

والعمل على أساس أن المدينة تظل
مفتوحة على مجموعة من العلاقات الإنسانية
التي تتم الاستفادة منها في جانبها الرمزي أو
الاقتصادي الصرف. فالجانب الرمزي يتجسد
في القربان والصدقات التي يظل الدكان
والمقهى أماكنها المفتوحة، والبيت كمكان
مغلق. أما الاقتصادي فينعكس في بعده
التجاري. واللائت أن المظهر الاقتصادي
يكاد يطغى في «بنات نعش»، فتنظيم صفقات
البيع والشراء، وقوافل التجارة (يكاد) يتحقق
في كليته من المدينة إلى المدينة، ويتحوّل
من الحبوب المرتبطة بالوسط القروي إلى
القنب والحشيش وغيرهما:

« . . أما في الجولان فسوف ينظم
قافلتين للعمل بين الشام وفلسطين:
واحدة تتركز في عين فيت وبنولها
بيت السعد، وواحدة في العمال
ويولها بيت الناصح، وقد أعد
لحدود الإنكليز والفرنسيين عدتها.
ليست غايته أن يؤجر القافلة لفلان أو
علان من التجار، بل أن يمسك
بالخيوط الجديدة من أولها إلى
آخرها. « (ص ٤٣).

« . . كان دكان سليم أفندي شراعته
الكبرى على الشام، كما كان أقرب
إلى الشوارع والمقاهي. والناس
أقرب إلى الدنيا، يفرج وينصت
ويطلق لسانه أحياناً. أما بعد الدكان
فقد غدا بلا شراعة، أو أن شراعته
صغرت وتشتت، وهو يحسب
العكس. ولذلك كلف طه قبل أن
ينادر بيروت بأن يحضر له كل صباح
أو مساء من الآن فصاعداً جريدة
ما « (ص ٦٧).

بيد أن ما يترتب عن العمل في المدينة هو
نوعية التعامل والعلاقة مع العامل، وهي
نوعية منبثقة عن وعي تم اكتسابه بالمعرفة،
وسوف ينطلق لاحقاً إلى القرية . . فالتعامل
يتسم بالوضوح التام، وبالتعاون والتسامح،
بحكم كون الرأهن يقتضي ذلك حتى تشكل
وحدة المواجهة ضد المحتل الفرنسي الذي
قسّم المدن إلى دول، منصّباً عليها رؤساء.
وهكذا نجد الحوارات تتعلّق بـ: الحزب،
النقابة، الثورة، أو البلاشفة . . وهي
مصطلحات لم تكن لتداول في القرى
والبوادي إلا في فترة مغرقة في البعد:

« . ما ظلّ يحيره كان بخاصة
الأستاذ فخري الفخري الذي يتردد
لما على المصينة، لا يغلظ لعامل،
حتى ولو كان مقصراً. بل إنه كما
أكد ليف لم يطرد عاملاً، حتى ولو
ضبطه متلاعباً، أو مختلساً لبعض
الواح الصابون. وحين فعل، مرّة أو
مرتين، ظلّ منقبضاً لأتّام. «
(ص ٢٨٥)

« . . فرنسا وخذت دولة حلب مع
دولة دمشق، وعيّن القائد الذي خان
رئيساً. « (ص ٢٧٨).

والملاحظ أن الهجرة من القرية إلى
المدينة أو العكس، لم تكن متفارقة . . أقول
كانت نسبية لباعث مؤداه كونها ظلّت حبيسة
الوسط القروي: من القرية إلى القرية، وليس
من القرية إلى المدينة، أو من المدينة إلى
القرية . .
لذلك فإن المدينة في «بنات نعش» هي
بمثابة:

١ - الصورة الحضارية والوعي المنتج،
٢ - اللبنة الأساس لتشكيل الدولة المدنية
المستقلة،
٣ - المظهر الحقيقي للعمل الفردي،
وإنشاء الطبقة العاملة.

٤ - ٢ : الشرق ≠ الغرب :

أورد «هشام الساجلي» في الفصل الأخير
(٣٠) من «بنات نعش» وهو يعتزم إصدار
جريدة، ما يلي:

«يعمل الحزب على تحقيق السيادة
القومية ووحدة البلاد السورية
بحدودها الطبيعية، ويضمن الحريّات
الشخصية، ويحمي الصناعات
الوطنية، ويؤمن الموارد الاقتصادية،
ويدرب الشعب على الديمقراطية»
(ص ٥٦٥).

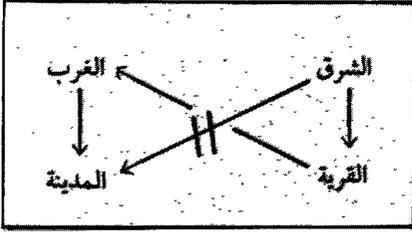
هذه الفقرة بالذات، تختزل مشروع
البرنامج السياسي المرغوب تطبيقه، وهو
برنامج عبّر عنه «د. عبدالرزاق عيد» بالتالي:

«إنّ القارئ سيكون مندفعاً عندما
يرى أنّ البرنامج السياسي والسياسات
الدستورية التي يعيد فيها هشام
الساجلي تقلاب النظر مازالت
مشروعاً سياسياً ودستورياً يبحث عن
معناه الفعلي في الواقع حتى اللحظة
الراهنة»^(٢).

يتضح من الفقرتين أن صورة الحاضر لا
تختلف في شيء عن الماضي، بحكم أن
المطالب التي تمّ النضال من أجلها ضد
مختلف الاحتلالات لم يتمّ الظفر بها. ومن
ناحية ثانية، يتبين أن أوام الاستقلالات في
معظم البلدان العربية قد أبانت عن صورة،
بل صور، لمحتل يحمل السحنة العربية،
دون أن يفكر على الاطلاق فيما هو عربي.

من هنا اعتبر أن بنية التضاد الجامعة بين
الشرق/ الغرب، هي بنية هدفها التأسيس
لنهضة عربية تجعل العرب يقفون في مواجهة
الغرب فكراً وسياسة ومدنية، لولا أن هذه
النهضة تلبت حلاً مجهضاً في الحالات التي
يجلو فيها الواقع عن النوايا العربية التي تقف
عقبة كأداء حيال هذه النهضة، إلى جانب
الأحاييل الاستعمارية الرامية إلى تمزيق
وحدة الصفّ العربي. وحتى لا أمضي بعيداً
لأتساءل: كيف جسدت «بنات نعش» رؤيتها
إلى الشرق؟ الشرق في «بنات نعش» لا يمكن
الحديث عنه إلا باستدعاء الغرب. فهو
كمحتلّ فسررض هيمنته العسكرية

(٢) كتاب: الرواية والتاريخ، دراسة في مدارات
الشرق: عبد الرزاق عيد ومحمد جمال باروت،
دار الحوار، سورية، ط ١، ١٩٩١، ص ٦٣.



فنهضة الشرق على ضوء ما تضمنته «بنات نعش» لن تتم إلا:
 ١ - بإقرار هوية تامة،
 ٢ - بخلق اقتصاد مستقل،
 ٣ - وهو الأساس: توطيد العلم والمعرفة.
 إن هذه المطالب - وكما سلف - ماتزال قائمة إلى اليوم.

٤ - ٣: الدفاع ≠ التواطؤ والخيانة:

في هذه البنية الثالثة الصغرى، يعكس الدفاع مقاومة الاحتلال ومجاهته، بهدف استعادة الأرض واستقلال الوطن، وذلك كيما يتأتى بناء دولة حرة تفخر بسيادتها، وبمظاهرها الحضارية. على أن من مواصفات الدفاع الرفض، وهو يتمثل في استبعاد المواطن للأساليب الاستعمارية سواء في تقسيم الأرض، أو في محاولة استغلالها. بيد أن الرفض قد يستدعي التوحد والتكتل الجماعي بعيداً عن حمل السلاح، كما أنه يلزم بذلك إذا ما تحول إلى مواجهة. وهذه تقتضي حمل البندقية للدفاع عن الأرض أولاً، وعن الذات ثانياً، مع التوق إلى تأسيس الجماعات الثورية المناهضة والعمل في صفوفها.

ومن الممكن أن يتبلور الرفض في نمط توعية فكرية وسياسية تركز على فضح مضاعفات الاحتلال، وتبيان الطرق والكيفيات التي في ضوئها تتحرك النوايا الاستعمارية، مع الجنوح إلى غرس بوادر العلم والمعرفة حتى لا تكون المجابهة بالبندقية وحدها، وإنما بالفكر والمعرفة أيضاً. وأعتقد بأن «الجريدة» لعبت دورها في تدعيم المسار التوعوي. وقد وقف خلف هذا الدور الأستاذ «فخري» و«وليف» و«عزيز» غداة انتقاله من القرية للعمل في مصبنة

أنت مرة تفكر في شركات زراعية، ولا يعجبك شغلي وشغل غيري في الزراعة، نسيت؟ واليوم أراك تفكر في صناعات أصحابك البسيطة، أو - حتى - في معمل الزجاج، ولا يعجبك شغلك في الدكان ولا في التجارة كلها...» (ص/ ٥٠٦).
 «الشام يا سادة تستورد الحليب والجبن والأحذية، وما شابه، هل نضحك أم نبكي؟» (ص/ ٥٠٧)

والواقع أن نهضة الشرق لن تنحصر في الهوية والاقتصاد، وإنما ترسخ بدءاً من تحصيل العلم. وكل علم هو دعوة للتفكير: التفكير في الحاضر والمستقبل. لذلك فإن ما يحسن الانكباب عليه هو العلم بهدف مقارنة المعرفة بالمعرفة من جهة، ومن أخرى بهدف القضاء على سياسات التجهيل الرامية إلى قتل «قلق السؤال». ولكي تستكمل المعرفة أبعادها فإنها غير مطالبة بالخنق والضيق، وإنما بالانفتاح على الكوني والعالمي..

إن أسمى مظهر للاحتلال هو معرفة ثقافة الآخر، ومناقشته فيها.

«أفاض الباشا في النهضة التي تساعد الدول المتحضرة على بعثها في بلاد العرب وفي غيرها، وإن كانت تعيقها أو تصادرها في الآن نفسه، كما أفاض في الحاجة إلى العلم، قبل أن يزوّق المستقبل القريب الذي تستقل فيه الشام، ويحض الرؤوس التي برمت به على أن تفكر وتبدأ سعيها الحثيث من أجل ذلك، ابتداء من هذا الاجتماع...» (ص/ ٥٢٣) «محاولة هشام هذه جعلته يردد في سره، وأمام الباشا وسواه، أن هذه البلاد هي حقاً باب الغرب إلى الشرق وباب الشرق إلى الغرب، وأن أية قوة لا تستطيع أن تحول بين هؤلاء البشر المتعطشين والأفكار الجديدة...» (ص/ ٥٦٦)

تبدو بنية الشرق/ الغرب وكأنها متناصلة أساساً من سابقتها: القرية/ المدينة. فالشرق أشبه بالقرية في تخلفه، فيما الغرب في تقدّمه يماثل المدينة..

والإيديولوجية، سيظل الإرث الذي تحمّله الذاكرة العربية دون نسيانه على الإطلاق.. ومن ثمّ كان سؤال الهوية الأفق الذي انفتح عليه حلم وأمل الشرق والشرقيين، ولن يتحقق هذا فعلاً إلا بالتصدّي للاحتلالات مهما كان نوعها ودرجات فاعليتها. هذا التصدّي الذي لن يتطلب سوى المقاومة الدائمة لتأكيد الحضور وتكريس الاستقلال.

ومادام الأمر يتعلق بوضع عربي، لا بسورية وحدها، فإن المقاومة تكتسي صبغة الشمولية:

«.. لا قوة في الأرض تقدر على أن تمنحنا السعادة إلا زودنا.. لا قوة ما دنا عاجزين - هشام الساجلي» (ص/ ٩٦) «الشرق للشرقيين.. هذا شعارنا يا سليم أفندي. وفرنسا لا يجوز أن تتركوها نهناً يوماً في الشام، كما أننا بحاجة إلى مساعدتكم...» (ص/ ٥٠٣).

«تقول: إن هذا الوضع لا يعم سورية وحدها، فعلى امتداد المسافة كلها، من شانفهاي إلى أغادير، هبت آسيا وإفريقيا ضد سيطرة أوروبا» (ص/ ٥٧٠).

إن معنى الاستقلال الحرة، ومظاهر الحرية تفترض الخروج من دوائر التبعية مهما كانت أشكالها. لذلك فإن الشرق مدعو لتوطيد اقتصاده المحلي، وذلك بإرساء فلاحه محلية، وصناعة كذلك.. وبالتالي توقيف عجلة الاستيراد التي تستهدف أصلاً التبعية والتفكير، وهما معاً وجهان للمستعمر. من ثم تولدت فكرة تأسيس الشركات، وتوسيع هذا التأسيس نحو الدفع بالمستوى الاقتصادي إلى أمداثة البعيدة، دون أن يغيب عن بالنا كون بعض «الأشياء» ستظل الفاقة إليها دائمة، غير أن البعض لا يمكن اعتباره كلاً.

«ذكرتني الآن بما كان يشغلك يوم رجعنا من برلين. أنت دائماً ضد الاستيراد. ما اتفقنا يوماً على هذا. بالطبع الاستيراد ليس واحداً، ولكن

«فخري» بالمدينة، ونجد من بين شخصيات الدفاع ضد الاحتلال:

«عزيز البلاد»، «اسماعيل معلًا»، «حمادي الحسون»، «وليف كيروز»، «حسين فندي» الأستاذ «فخري» وغير هؤلاء.

في مقابل الدفاع: التواطؤ والخيانة. ويتجسدان في الوقوف إلى جانب المحتل: الوطني والأجنبي، وذلك بمساعدته في أداء مهام الاحتلال، والاستفادة من الظرف رغبة في تحقيق مكاسب مادية وميول وصولية، علماً بأن التواطؤ والخيانة يتّمان بالوشاية، بالتعنيف، ثم بالقمع والتعذيب والإجبار على خدمة المحتل والتطوع في صفوفه، حتى ولو كان الأمر على حساب الوطن والمواطن، ثم ختاماً التأمّر باسم الوطن والوطنية، لبناء دولة تابعة للآخر.

من بين الشخصيات المخائنة والمتواطئة نجد:

«ياسين الحلو»، «فياض العقدة»، «راغب الناصح»، و«عمر التكلي». وهي في حياتها وتواطؤها تؤيد «الفرنسة»، أو تناصر «الأمير دشاش»، وتمثل للدفاع بالتالي:

«.. ولكن هل يكون الرصاص قد قلب عيود بك على الأرض دون أن يصصره؟ أقلق السؤال عزيزاً، وضاعف من سرعته، يخشى أن يكون زلم عيود بك قد أعلموا فرنسا نفسها بفعلة.» (ص/ ١٢)

«.. فمن يقدر أن يواجه الفرنسيين اليوم لن يعجزه أن يقف في يوم آخر في وجه رستم آغا. البلاد لم تخل من الرجال. ولرستم آغا ومن معه يوم أغبر مهما تأخر فهو آتٍ..» (ص/ ١١٢)

«.. ماذا تفعل هنا؟ خذ حرمك والحق بأهلها. اليوم ترحل يا ياسين. مفهوم؟» (ص/ ١١٤)

وعن الخيانة والتواطؤ النماذج التالية:

«.. ضج الرعاة بظلم فياض، واكنفى الشيخ غشوان أول مرة بأن يأمر فياض بالتعقل، أما في المرة

الثانية فقد شتمه. وهدده بالضرب والطرود.» (ص/ ٢٤)

«.. سوف أجعل الناس يقولون. غوطة التكلي، بل غوطة ابن التكلي، غوطة عمر التكلي..» (ص/ ٣٧)

«.. افتح أذنك جيداً: البيادر صرت تعرفها أراك من الشروق للغروب تدور فيها وأنت تهز بيدك. الآن البيادر عامرة، وناكر الجميل ما جزاؤه؟ يوم الشدة يزحف على يديه ورجليه: آغا يا آغا، ويوم الفرج يلعب بذيله» (ص/ ١٢٥)

إن الدفاع من خلال ما جئنا عليه يتّسم ببعده الوطني، وهو في الوقت نفسه نوع من الحب المعادل لعشق المرأة، وللام على السواء، في حين أنّ التواطؤ والخيانة تحطيم للبعد الوطني ولقداسة الحب.

٤ - ٤ : الحب ≠ الكراهية :

إذا كان البيت يعكس دلالة الاستقرار، فإن ما يتولد عن هذا الأخير هو حضور الرغبة في الحياة - وبالطبع لن تكتمل الرغبة إلا بحضور المرأة، خاصة وأنها تجسّد قيم الحب والاشتهاء، وأعتقد بأن من أسمى معاني الحب الفناء في عشقه وبالتالي نشدان الخلود. لكن، حين تؤول الرغبات إلى استحالة، فالاستمرار عبر الخلف يظل مطلب الانسان مادامت كل حياة يعقبها موت، أقول مادام الاستمرار يُعتبر من المستحيلات. من هنا حفلت «بنات نعش» بمظاهر الحب، وبالتوق إلى الإنجاب لتخليد الانسان بعد موته وانطفائه.

فالمرأة في «بنات نعش» تجمع بين كونها المرأة الطاهرة، وتلك المتسمة بالكراهية والخيانة، خاصة وأن ما تقدم عليه من ممارسات يجلو عن ذلك. وأعتقد بأن سمات المرأة الطاهرة كشفت عنها المرأة في القرية.. هذه التي تقود الانسان للتضحية بنفسه من أجلها، متى ما كانت الآصرة قوية والرغبة مشتعلة، إذا ما ألمعنا لكون المنع والحرمان (ولم لا: القتل؟) من بواعث الدفاع في وجه هذا المنع والحرمان والقتل،

لكأن في المرأة حقاً يجب الحصول عليه مهما كانت العواقب التي ستطول حياة الإنسان فيما بعد.

«رحمها الله يا عزيز. لا تحزن. الموت حق. اطلب لها الرحمة والمغفرة. إن شاء الله سأزوجك خيراً منها اختر ما تشاء من الخادومات؟ وهي لك.» (ص/ ١٠)

«.. لقد حرمه إذن عيود بك الرشدة من أول امرأة أحب. حرمه من أول امرأة تحبه. بل إنه داس على رقبته، معس فؤاده معساً.» (ص/ ١٠)

على أن من سمات هذه الطاهرة، الارتياح إلى جسدها، الجسد الذي يجد فيه الآخر اكتمال جسده، باعتبار أن الانسان يشعر بالنقص على الدوام، ويحس بأن شغل هذا النقص لن يتم إلا بالدويان في جسد الآخر. وفي أحيان يتدو حب المرأة استدعاء لصورة الأم الغائبة، أو البعيدة، حيث يُتنتظر استمطار حنانها قصد الركون إليه، ومعانقة طفولة ثانية: طفولة اللعب، الحرية والبوح بالأسرار الخفية..

«ورأى أن يكافئ نفسه على ما تستحق، لكنه افتقد السجارة والعرق والياسمين، فأمر بالشواء، ثم أمر هنداً أن تمعري، وأمر نفسه أن يتمري، وأن يضاجع في هند تلك الأم ويتبها معاً، وعلى الرغم من أن هنداً كانت ذاهلة، إلا أنها مالبت أن أخذت تتلوى وتشهق، تتوسل إليه وتعضه، ولا يكاد يهدم حتى تحببه من جديد.» (ص/ ١٤٥)

«.. يحنو عليها ويود لو يفضي بما بات يشغله من أمر هذا المكان يوماً إثر يوم، بالأحرى صباحاً بعد صباح، وخاصة أنها كانت قد دلت من قبل مراراً على أن لديها ما يجعله أو يخلط فيه.» (ص/ ٢٠٠)

ولعل من أنقى صور الطهارة التي أبانت عنها المرأة القروية، رفضها للمراودة، وللممارسات غير الشرعية، مهما كانت الإغراءات، وبالتالي مهما كان موقع الآخر

بالنسبة للأثني . فالشرف يظل حاضراً لا يمكن أن تطول به يد الإنسان، لترتسم المسافات البعيدة بين المرغوب فيه وما يجب، بين المباح وما يظل ممنوعاً، بين ما تنوق إليه النفس وتسكن إليه، وبين المرغوب بشكل قطعي . وهذا ما جسدهه مثلاً «أم عثمان»:

«- حاول معي بالحرام وحاول بالحلال . وكما قال لك . غيره حاول» (ص/ ٢٤٢)

«- لا يا عزيز - روح دور على بنت باكر . لا تتزوج أرملة ، أنت تليق بأحلى البنات ، أما أم عثمان فليس لها غير أن تندب حظها وتتمنى لك الخير» (ص/ ٢٦٠)

«- ابعده عن شعبة يا راغب - كرمي لله أبعد» (ص/ ٢٦٩)

في المقابل، نلني المرأة التي تُثير فينا كرهها لعامل الدنس الذي تأتيه، والخيانة التي تُقدم عليها - وعلى الدوام فالمبادر شخص الرجل الحامل للربغات الشهوية بحثاً عن تحطيم الشرف والقداسة أيضاً، وهو ما يمكن أن تؤديه الأثني كذلك كمهمة، في حالة الرؤية إلى الآخر من ذات الزاوية، أو مما هو أبعد.

وأرى أن «عمر التكلي» و«راغب الناصح» قد جسدا النموذج الأبشع لـ «الشرقي» الحامل خلف ظهره شبقه ونزوعاته الجنسية (وهو ما أباين عنه «هشام الساجلي» بكيفية أخرى):

«.. بنت قطيش، وهو الاسم الذي عرفت به سارة منذ طفولتها، استأثرت بعمر، واستأثر بها منذ شهور..» (ص ٤٩).

«.. وأم نور الدين أنت إلى بالماء والطست ليغسل وجهه، ثم أنت بالبانونج وجلست قبالة، كأنها الست زهرة نفسها» (ص ٦٠).

«.. لم يزعو راغب . قضى مع أم ناصح ليلة واحدة، لم يستطع أن يضاجعها فحردت - وفي الصباح عجل إلى علي فيت، وانعطف

بالحصان نحو بئر عجم، يدور حول تخوم الأشجار والذرة، يتحاشى أن يصادف أحداً، حتى فاجأته البندقية من تحت أكمة الزعرور، وصاح به ذلك الصوت .

هذه المرة لن أرميك من فوق حصانك . ابعده عن هذه الأرض واتق الله . انظر كيف تصون عرضك» (ص ٨١).

«تشبهت المستر بييجت والخواجة ثابت وسليم أفندي وأطياف ذكور كثيرين يشرعون أعضاءهم» (ص ١٠٧).

فهذه المرأة المدنسة تجلو عنها المدينة بوضوح، دون أن نفوتنا الإشارة لحالات قروية، علماً بأن «بنات نعش» لا تستحضر شخص المرأة إلاً بذكر الرجل، وفي غيابه (قد) يتم طي صفحتها كنموذج (فاطمة غداة موت إسماعيل معلًا)، وعدم الرجوع للحديث عنها.

على أن الشخصية النسائية المفارقة في «بنات نعش» تظل «نجوم الصوان» التي تجسد المرأة / الرمز داخل الرواية، خاصة وأنها تختلف عن النموذج الأول والثاني، وتختار المجابهة والتصدي للمحتل (المحلي والأجنبي)، بحثاً عن الهوية الأصلية والضائعة بغياب إخوتها الذين يقاثلون بهدف

للتبعية، وليست رصاصات «نافع الصوان» إلاً الدليل القاطع على أن الاستقلال لا يتحقق بالتواطؤ، أو اقتطاع أجزاء من الأرض، وإنما وفق استرداد الهوية كاملة. يرى «محمد جمال باروت»:

«.. إنها «الشام» الفلاحية الثائرة التي قاتلت الأتراك وكبار الملاك «الفيصلين» والفرنسيين»^(٣)

«.. بيت الصوان ما خلقوا ليعلموا الآخرين، لولا قياض رحمه الله وسامحه .» (ص ٥٤٢).

«سأل الصوت:

- ماذا كتبت عن نافع الصوان وجماعته؟

بهت هشام وسأل بعد لأي:

- ومن يكون هذا؟ من هي جماعته؟

- المهاجرون؟

- ما ذكرهم أحد لي قبلك..» (ص ٥٧٨)

«.. كانت المرأة تنادي إخوتها المقتولين والضائعين..» (ص ٥٧٨).

ختاماً أورد جدولاً يوجز بعض نماذج الشخصيات النسائية السالف ذكرها، علماً بأن المرأة في «بنات نعش» تستكمل الحركية الاجتماعية المتفاعلة داخل الرواية:

المرأة/ المواجهة	المرأة/ الخيانة	المرأة الطاهرة
نجوم الصوان	خديجة التكلي	فاطمة / إسماعيل معلًا
	الست زهرة	هند / ياسين / الحلوة
	أم نور الدين	أم عثمان
	سارة	

(٣) كتاب الرواية والتاريخ مرجع سابق - محمد جمال باروت - دار الحوار، دمشق، ص ١١٧.

استعادة الأرض، والكرامة الإنسانية. إنها الوطن الرافض للاحتلال، وغير القابل

٥ / المثقفة :

وأستبدل عليها بـ «هشام الساجلي» .
وهي الشخصية الصحافية والمثقفة التي تجمع بين الحلم في تأسيس المجتمع المدني الديمقراطي، والروح «اللذية» المستكشفة عبر البحث عن التراث الجنسي، وهو ذاته ما تظهره في الحوار الذي حسم «هشام» و«جانيت» في الفصل الأخير (٣٠) من «بنات نعش» .

يبقى لنا القول بأن الوظائف التي أفردها عليها هذه الشخصيات، ومن شأنها الآوي العليم والمحيط بالكل، مُنبتة بالإخفاق، وهو ما دعاه يدعو إلى معاونة البحث عن الذات، عن الهوية، واستقلال الوطن، خاصة أن أرباب الاحتلال ماتزال مشرعة.

المعرب

من منطلق كون هذه العينة رئيسة تضيء بقية الشخصيات المتفاعلة على امتداد النص الروائي. وليس التصنيف سوى كشف وبيان للوظائف والمهام المؤداة من طرف هذه الشخصيات، حيث لا يمكن الوقوف ضمن النص (قصة / رواية) على شخصية ما لا وظيفة تؤديها.

من ثم، لي أن الامس عينة هذه الشخصيات، من رواية ما تأتي على أدائه والقيام به.

١ / المقاومة :

وأمثل لها بـ «عزيز اللباد» الذي أبانت «بنات نعش» عن شخصيته المقاومة بإطلاق الرصاص، والانتهاه إلى المنفى من لدن «الفرنسة». فمن مميزات هذه الشخصية عدم الاستقرار، بحكم التهجير الذي تعرضت له غير مرة، ثم الرفض لأساليب الخيانة بحثاً عن استعادة الأرض وبناء الوطن.

٢ / الوصولة :

يجلسو عنها «عمر التكلي» . هذه الشخصية ذات النزوع البورجوازي والروح الشبقية، لا هم لها سوى الامتلاك على حساب النضال والمقاومة، حتى ولو تم ذلك بالخيانة والوشاية. وقد لاقى عقابه على يد الثوار، وبالرغم من ذلك ظل محافظاً على ميوله.

٣ / الماجنة :

وتبين عنها «خديجة التكلي» التي لم يتوقع طرف ما ضمن الرواية / خارج الرواية خيانتها، وهي التي أطلت من وسط محافظ يضاد سلوكياتها.

٤ / الوطنية :

وتتجسد مثلاً في شخصية «الباشا شكيم» أو «سليم أفندي»، وهي الشخصية التي احتلت موقعا ضمن الحيز الروائي، وذلك بحضور بعدها السياسي، وبرفضها للأساليب الاستعمارية، وفي الآن ذاته رغبتها في إدارة شؤون الدولة وتسيير أمورها.

واللأفت أن الصورة التي حملتها / تحملها «نجوم الصوان»، هي عينها الهيئة التي تميزت عليها وبها شخصية «عزيز اللباد» الملحمية الأسطورية، وقد جمع الروائي بينهما لحظة المطالبة بكشف واقع الإخوة الذين ابتلعهم الغياب، وهو ذاته ما حصل في السابق بين «عزيز» و«أم عثمان»، حيث ترتب عن الرفض التهجير والتفني.

أشرنا فيما مضى إلى أن بنية المواجهة والإخفاق توظف نص «بنات نعش». وحتى نلمس بهذه البنية بشكل موسع جنحنا إلى تجزئتها إلى بُنى صغرى متضادة، وفي الآن ذاته متضامة، على اعتبار أن اللائق يتناسل من السابق، فهذه البنى الصغرى تؤول في بنيتها بنية المواجهة والإخفاق، وهي الرواية موضوع دراستنا هذه، إذا ما أسسنا رؤيتنا إلى الرواية وفق المقياس الدال على أن كل ما كان يُصاب بإخفاق وإحباط. فنشددان على استقلال مظهر عبر عدة أشكال للمقاومة، حين اتخذ الإخفاق تحليات أخرى (قد يصح عدّها أقوى بكثير من أشكال المقاومة، وهي الحال التي لا تفرد بها الشام، بل تمتد لتحيط بالواقع العربي في شموليته) عبرنا عن هذا أكثر من مرة).

فهذه البنية الكبرى تعكس الرغبات التي نصحت عنها مجموع شخصيات الرواية، كما أبانت عن التوايا المحمولة من لدن هذه الشخصيات، وقد انسربت تجلياتها في مشاركتها سواء إلى صف العنصر المقاوم، أو لمحتل للبلاد. ومن ثم جاءت الرواية متنوّعة وفق جمالياتها الدالة، التحويلات، الجاسية والاجتماعية والفكرية للشام، وهي تحولات التي احتكمت إلى تسلسل زمني حثار له الروائي (١٩١٨ - ١٩٢٧)، وضمنه -حقيق قراءة «الأشربة» و«بنات نعش»، لاحقاً «التيجان» و«الشقائق».

٥ / نحو تصنيف لشخصيات

الرواية :

التي تشمل التصنيف مجموع شخصيات الرواية، وإنما سيكتفي بالإحاطة بعينة منها،

